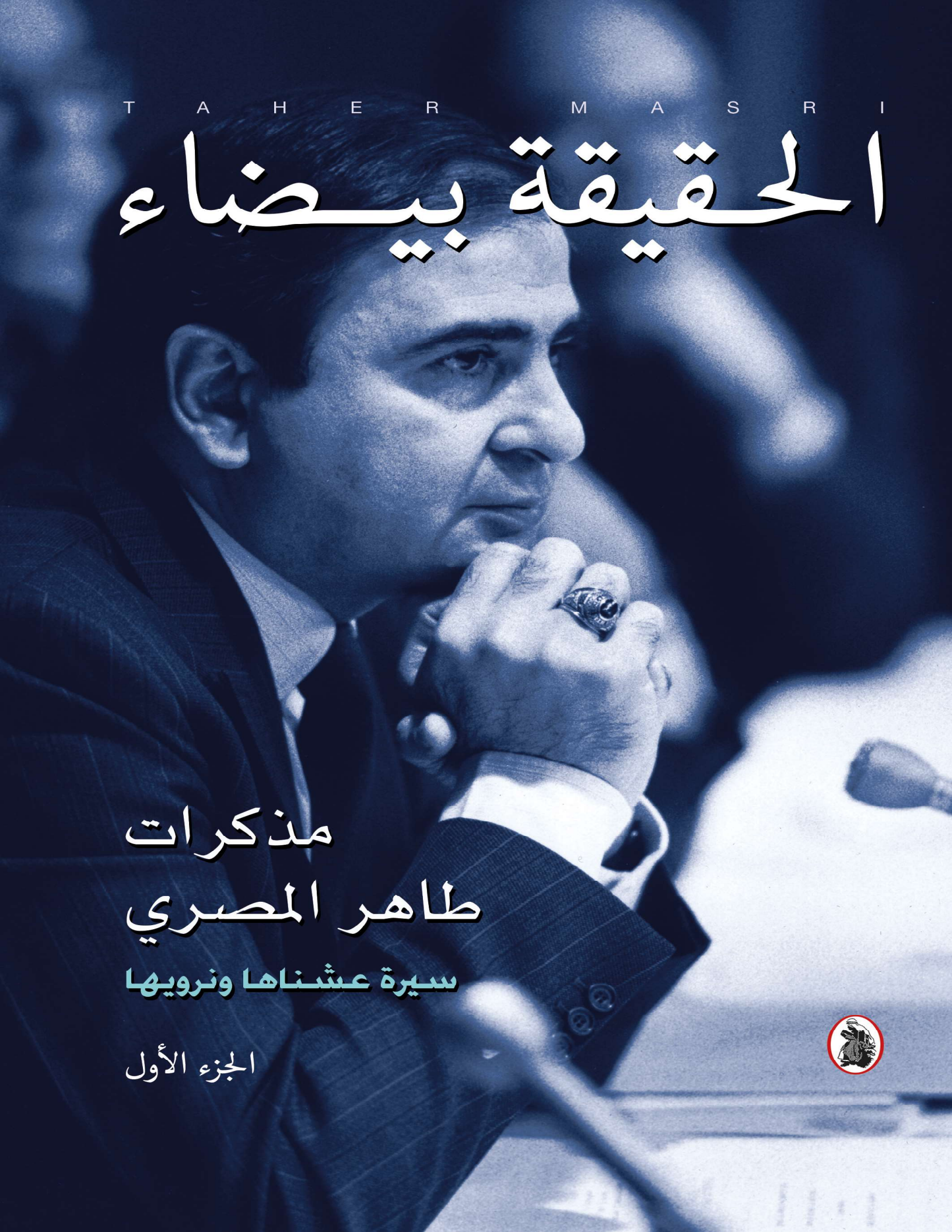

TAHER MASRI

الحقيقة بيضاء

مذكرات طاهر المصري

سيرة عشناها ونرويها

الجزء الأول

الفصلُ الثّالثُ

إسبانيا الّتي شَفَتْني

في الخامسَ عشرَ من كانون الثّاني / كانون الثّاني ١٩٧٥ بدأتُ مرحلةً جديدةً من حياتي. خضتُ خلالَها تجربةً غنيّةً اَنطلقتْ من إسبانيا، وشرعتُ بإعدادِ نفسي لمجالٍ لم أخضْهُ في السّابقِ وهو المجالُ الدّبلوماسيُّ.

قرأتُ بعضَ الملفّاتِ عن إسبانيا في وزارةِ الخارجيّةِ. لكنّها كانتْ محدودةً وغيرَ كافيةٍ ولا تسمّنُ أو تُغني من جوعٍ، ولمزيدٍ من الاطّلاعِ، اَلتقيتُ ببعضِ الدّبلوماسيّين الأردنيّين الّذين خدموا في هذه الدّولةِ، منهم المرحوم إكليل السّاطي، والمرحوم مِدْحَتْ جمعة الّذي حَلَلْتُ مكانهُ في السّفارةِ.

بدايةً، وقبلَ الاستغراقِ في تفاصيلِ تجربتي الإسبانيّةِ، أشيرُ إلى ما لَفَتَني لدى زيارتي الأندلس، حيُث ظهرتْ لي عظمةُ العربِ والمسلمينَ، وظهرَ لي أيضًا مدى التّعتيمِ على تلك الحقبةِ الطّويلةِ من التّاريخِ الإسبانيِّ، وتجاهلِها لدرجةِ أنّهم لم يكونوا يدرِّسون الطّلبةَ في مدارسِهم عن تلك الحقبةِ إلّا بشكلٍ سطحيٍّ. فقد كانوا يطلقون على العربِ في الأندلس لفظة المورز (Moors)، أي سكّان الشّمال الإفريقيِّ أو البربر. أمّا العربُ فهم سكّانُ بلادِ الشّامِ. وذلك ضمنَ التّجاهلِ المُتَعَمَّدِ للوجودِ العربيِّ الإسلاميِّ.

كانتِ المحاولاتُ لتغييرِ هذه الصّورةِ قد بدأتْ، وظهرَ علماءُ مستشرِقون إسبان ومؤرّخون عربٌ يسلّطونَ الضّوءَ على تلك الحقبةِ، كما كان آلافُ الطّلبةِ العربِ يتابعون دراستَهم في جامعاتٍ إسبانيّةٍ وفي المجالاتِ كافّةً.

واليومَ، نرى أنَ هذه المحاولاتِ تتعاظمُ باَستمرارٍ، والمصالحُ تتشابكُ والصّورةُ تتغيّرُ. فقد أصبحتْ إسبانيا نقطةَ وصلٍ مهمّةً بين العالمِ العربيّ وأوروبّا، وبين الحضارتَين الغربيّةِ والإسلاميّةِ. ولا شكَّ في أنّ موقفَ الجنرال

فرانثيسكو فرانكو (Francisco Franco)، طوالَ عهدِه، بعدمِ الاعترافِ بإسرائيل ضمنَ دولٍ أوروبيّةٍ قليلةٍ جدًّا لا تتعدّى أصابعَ اليدِ الواحدةِ. فقد كانتْ له اليدُ الطّولى في هذا المجالِ.

وأصبحتْ إسبانيا مقرًّا لجامعاتٍ عربيّةٍ إسبانيّةٍ مختلطةٍ، ولحواراتِ أديانٍ متقدّمةٍ بالرّغمِ من اَنضمامِها إلى الاتّحادِ الأوروبيِّ، وبدأتْ تتحوّلُ إلى دولةٍ أوروبيّةٍ ناجحةٍ بكلِّ المقاييسِ، بعدَ أن كانتْ منعزلةً عنها بسببِ مقاطعةِ الأوروبيّين لنظامِ فرانكو الفاشيِّ.

اِلتحقتُ بمنصبي في مدريد قبلَ وفاةِ الجنرال فرانكو بعدّةِ أشهرٍ. لم أكنْ أعرفُ إلّا اليسيرعن خلفيّتِه. إلّا أنّي قرأتُ وتعلّمتُ عن التّاريخِ الحديثِ لهذه الدّولةِ.

كانت إسبانيا في تلك المرحلةِ تمرُّ بعنقِ الزّجاجةِ، فالإسبانُ كانوا لا يزالون يعيشون أجواءَ الحربِ الأهليّةِ، ووحشيّةَ القوّاتِ الملكيّةِ «الفلانج ـ الكتائب»، والّتي كانت موجودةً من خلالِ نظامِ فرانكو و«طُهرانيّتِه» المسيحيّةِ المتشدّدةِ.

في المقابلِ، كان يسودُ شعورٌ آخرُ، وهو أنّ البلادَ بدأتْ تتطوّرُ بشكلٍ منتظمٍ ومخطَّطٍ لهُ وبعيدٍ عن الفسادِ والانفلاتِ، وكان الأمنُ مُستتبًّا، وتكاليفُ الحياةِ رخيصةً بشكلٍ كبيرٍ جدًّا، والاقتصادُ الإسبانيُّ قد بدأَ يتحسّنُ ببطءٍ ولكنْ بقوّةٍ.

أوّلُ ما تبادرَ إلى ذهني عندما عرضَ زيد الرّفاعي عليَّ أن أكونَ سفيرًا للأردنّ في إسبانيا، هو أنّه «منصبٌ مريحٌ». فإسبانيا بلدٌ أوروبيٌّ له علاقاتٌ جيّدةٌ مع الأردنّ، يقعُ في الطّرفِ الغربيِّ من أوروبّا، ومشاكلُ العلاقاتِ بين البلدَين محصورةٌ ومحدودةٌ إنْ لم تكنْ معدومةً.

لحسنِ حظّي، كان الانسجامُ يسودُ علاقتي بفريقِ عملِ السّفارةِ، وكان سكنُ السّفيرِ مُريحًا. والأهمُّ، أنّ القرحةَ في معدتي الّتي كنتُ أعاني منها منذُ

كنتُ في السّادسةَ عشرةَ من عمري وظلَّتْ تؤلمُني طيلةَ فترةِ الدّراسةِ الجامعيّةِ وخلالَ عملي بالبنكِ المركزيِّ وفي الوزارةِ قد اَختفتْ! في ذلكِ الوقتِ، كنتُ أحضرُ اَجتماعاتِ مجلسِ الوزراءِ وأشدُّ على بطني من الألمِ الشّديدِ.

وإنّ الألمَ اَختفى تمامًا في الأشهر السّبعةِ أو الثّمانية الأولى من وجودي في إسبانيا، وذلك مع زوالِ التّوتّرِ من حياتي.

كانت عائلتي صغيرةً. اِبنتي نادين لا تزالُ رضيعةً، وكان اَبني نَشْأَتْ قد بدأَ وخلالَ بضعةِ أشهرٍ يتعاملُ مع اللّغةِ الإسبانيّةِ، ووجدْنا المدرسةَ المُناسبةَ له، وهكذا بدأتُ التّعرّفَ على عملي المريحِ، كما بدأتُ أتعلّمُ اللّغةَ الإسبانيّةَ بنفسي وبسرعةٍ، لأنّ اللّغةَ سهلةٌ، وكان سنّي يساعدُني على الحفظِ والتّعلّمِ، والأسبانُ ودودون يساعدونكَ على التّعلّمِ، والأهمُّ أنّهم لم يكونوا يتحدّثون لغاتٍ أخرى كالإنكليزيّةِ لنستطيعَ الحديثَ معهم، لذلك كنتُ مضطرًا إلى تعلّمِ لغتِهم بسرعةٍ لتسييرِ شؤوني اليوميّةِ، وخلالَ فترةٍ وجيزةٍ صرتُ قادرًا على التّعبير عن نفسي بشكلٍ جيّدٍ، وفي أواخرِ أيّامِ عملي في مدريد، كنتُ أذهبُ إلى وزارةِ الخارجيّةِ الإسبانيّة وأتحدّثُ مع مَنْ ألتقيهم باللّغةِ الإسبانيّةِ.

كان حوالي ثلاثةُ آلافٍ طالبٍ أردنيٍّ يدرسون في إسبانيا ويتوزّعون في المناطقِ والجامعاتِ كافّةً، وأوّلُ ما قمتُ به هو زيارتُهم حيثُ يتابعون تعليمَهم، وبتنسيقِ المستشارِ الثّقافيِّ في السّفارةِ المرحوم تَيْسِير عرفة، فقد كان رجلًا منظّمًا ونشيطًا وعلى علاقةٍ حسنةٍ بالطّلّابِ.

لا أزعمُ أنّني حزتُ على قلوبِهم ورضاهم، لكنّني متأكّدٌ من أنّهم كانوا مسرورين من كوني السّفيرَ الأردنيَّ الوحيدَ الّذي زارَهم في جامعاتِهم وفتحَ معهم حواراتٍ مباشرةً ومفتوحةً.

وكانتْ لهم اَنتماءاتٌ سياسيّةٌ متعدّدةٌ مناهضةٌ في كثيرٍ من الأحيانِ للحكمِ الأردنيِّ وللسّفيرِ وللسّفارةِ الأردنيّةِ، ولكنّني لم آبهْ لذلك، ففتحتُ حوارًا معهم، وكانَ معظمهُ حولَ طريقةِ معاملةِ السّفارةِ لهم، وحولَ الأمورِ القنصليّةِ والتّشديداتِ الأردنيّةِ الأمنيّةِ بشأنِ تجديدِ جوازاتِ سفرِهم.

المشكلةُ الأساسيّةُ لهؤلاءِ الطّلّاب كانتْ تتمثّل في القيودِ الأمنيّةِ الشّديدةِ الّتي تفرضُها عمّان لجهةِ تجديدِ جوازاتِ السّفرِ، ولم يكنْ للسّفارةِ يدٌ فيها، بل كنّا نرسلُ الجوازاتِ إلى المركزِ في عمّان لأخذِ الموافقاتِ الأمنيّةِ، وكان الكثيرُ منها يتمّ رفضهُ، ما يثيرُ غضبَ الطّلّاب ضدَّ السّفارةِ والسّفيرِ.

والمشكلةُ الأخرى للطّلّاب أن عددًا كبيرًا منهم لم يكنْ مُنتظِمًا في دراستهِ. فإمّا كانوا مُتأخّرين عنها أو خارجَها لفصولٍ متعدّدةٍ لاعتباراتٍ خاصّةٍ بهم، فكانوا يحوّلون هذا الفشلَ إلى مشاعرَ غاضبةٍ تجاهَ السّفارةِ وتجاهَ السّياساتِ الأردنيّةِ.

في ذلك الحينِ كان الخلافُ السّياسيُّ شديدًا بين بعضِ الدّولِ العربيّةِ، وكانت بعضُ السّفاراتِ العربيّةِ في إسبانيا مثل السّفاراتِ العراقيّةِ واللّيبيّةِ وربّما السّوريّةِ، تربطها علاقاتٌ مع الطّلّابِ الأردنيّين وتحفزُّهم على اَتّخاذِ مواقفَ سياسيّةٍ مناهضةٍ للأردنّ.

كذلك وجدتُ أنّ العلاقةَ مع زملائي من السّفراءِ العربِ مريحةٌ جدًّا، وكان من بينهم السّفيرُ العراقيُّ «حسن النّقيب» أحدُ ضبّاطِ اَنقلابِ ١٩٥٨ المُبعد من قبلِ القيادةِ البعثيّةِ، شغلَ منصبَ قائدِ القوّاتِ العراقيّةِ في الأردنّ أثناءَ أحداثِ أيلول ١٩٧٠. وتسلّمَ اَبنهُ فلاح النّقيب وزارةَ الدّاخليّةِ في حكومةِ إياد علاوي بعد الاحتلالِ الأميركيِّ للعراقِ.

ومنهم أيضًا السّفيرُ اللّيبيُّ فوزي الغرياني، والسّفيرُ السّعوديُّ الشّيخ ناصر المنقور، والسّفيرُ الكويتيُّ علي هلال، والسّفيرُ المصريُّ محمود عبد

الغفار، وهو سليلُ أسرةٍ مصريّةٍ أرستقراطيّةٍ، حاولتْ منظّمةٌ فلسطينيّةٌ (الجبهة الشّعبيّة) اَحتجازَهُ في دارِ السّفارةِ المصريّةِ في مدريد، وجرتْ محاولاتٌ مكثّفةٌ من قِبَلِ السّفراءِ العربِ وغيرِهم للتّوسّطِ بُغيةَ إطلاقِ سراحِه، ومن بينهم أنا، فقد تجرّأتُ وذهبتُ إلى مقرِّ السّفارةِ المصريّةِ بإذنٍ من السّلطاتِ الإسبانيّةِ، ودخلتُ المبنى مُجازِفًا وغيرَ مهتمٍّ بأنّني السّفيرُ الأردنيُّ الّذي تكنّ له تلك المنّظمةُ عداوةً خاصّةً، ولكنْ لم أستطعِ الوصولَ ووجدتُ الأبوابَ مغلقةً فعدتُ خائبًا.

كذلك أذكرُ تمامًا، أنّ السّفيرَ السّوريَّ المرحوم د. سامي الدّروبي وهو ناصريٌّ عروبيٌّ عريقٌ وكان السّفيرُ السّوريُّ الأوّلُ لسورية في مصر بعدِ الانفصالِ، وعندما قدّمَ أوراقَ اَعتمادِه لجمال عبد النّاصر، ألقى خطابًا قوميًّا مؤثّرًا نشرَ في كلِّ العالمِ العربيِّ. وأُرسلَ فيما بعدُ، سفيرًا إلى إسبانيا حيثُ وتيرةُ العملِ مريحةٌ، وذلك بعد تعرّضِه إلى مشكلةٍ صحّيّةٍ في قلبه، وكانت حالتهُ الصّحّيّةُ هشّةً وخطيرةً.

وكان الدّروبي على علاقةٍ سيّئةٍ مع أعضاءِ سفارتِه وحكومتِه، وعندما تمّ نقلهُ إلى دمشق في حالةٍ صحّيّةٍ حرجةٍ، لم يُعلِمْ سفارتهُ بموعدِ مغادرتِه، بل طلبَ منّي أن أوصِلهُ إلى المطارِ، وهذا ما حصل بعد أنِ اتّخذَتِ السّفارةُ الأردنيّةُ كلَّ ترتيباتِ سفرِهِ بدلًا من السّفارةِ السّوريّةِ.

وكان القائمُ بالأعمالِ السّوريِّ شخصًا اَسمهُ فايز السّيّد أصبحَ فيما بعدُ مديرًا لمكتبِ الجامعةِ العربيّةِ في الأرجنتين. وقد علمَ بطريقتِهِ الخاصّةِ أنّي سأصطحبُ سفيرهُ إلى المطارِ، فلحقَ بنا.

سافرَ سامي الدّروبي إلى عمّان، أوّلًا لعدمِ وجودِ رحلةٍ مباشرةٍ من مدريد إلى دمشق. وكانت شركةُ الطّيرانِ الملكيّةِ الأردنيّةِ «عالية» دون سواها، تنظّمُ

رحلاتٍ مباشرةً من مدريد إلى عمّان. وأعلمتُ الدّيوانَ الملكيَّ بالأمرِ، وكان رئيسُ الدّيوانِ آنذاكِ الشّريف عبد الحميد شرف، وجرى له اَستقبالٌ لائقٌ وبقيَ في عمّان أيّامًا قليلةً لأنّ زوجتَهُ أردنيّةٌ.

لا تزالُ إسبانيا حتّى السّاعة تقيمُ مراسمَ راقيةً وغايةً في الجمالِ تتلاءمُ مع التّقاليدِ القديمةِ عند تقديم السّفراءِ أوراقَ اَعتمادِهم إلى رأسِ الدّولةِ، فيستقلُّ السّفيرُ العربةَ المُطعّمةَ والمُذهّبةَ الّتي تجرُّها الجيادُ من مبنى وزارةِ الخارجيّةِ إلى قصرِ الشّرقِ، ويقدّمُ أوراقَ اَعتمادهِ الرّسميّةَ بالزّيّ الرّسميّ «الفراك» مع الأوسمةِ الّتي يحملُها. ويرافقهُ أعضاءُ السّفارةِ الّذين يجبُ عليهم اَرتداءُ الملابسِ عينِها.

قدّمتُ أوراقَ اَعتمادي مُحدِّثًا الجنرال فرانكو باللّغةِ الإنكليزيّةِ، كان يقفُ في وسطِ القاعةِ هزيلًا وضعيفًا ويداهُ ترتجفان بسببِ مرضِ الباركنسون الّذي كان يعاني منه. وكان يرتدي الزّيَّ الرّسميَّ الخاصَّ برئيسِ الدّولةِ.

تحدّثَ فرانكو باللّغةِ الإسبانيّةِ، وكان وزيرُ خارجيّتِهِ كورتينا ماوري (Pedro Cortina Mauri) المتقدّمُ في السّنِّ يقومُ بالتّرجمةِ، وحضرَ إلى جانبي أحمد جمال بلقز وتيسير عرفه.

تحدّثنا عن مبادرةِ الملكِ عبد الله الأوّلِ بكسرِ الحصارِ الدّبلوماسيِّ على نظامِ فرانكو، وعن زيارتهِ مدريد عامَ ١٩٤٧، وعن كونِ الأردنّ من أوائلِ الدّولِ في العالمِ الّتي أقامت علاقاتٍ دبلوماسيّةً مع نظامِ فرانكو، ففي الخمسينيّاتِ كانت هناكَ سفارةٌ أردنيّةٌ في مدريد اَستلمَها لسنواتٍ طويلةٍ الشّريف حسين بن ناصر الّذي أصبحَ رئيسًا للوزراءِ فيما بعد، وبقيتُ مع فرانكو حوالي عشر دقائقَ أظهرَ خلالَها لطفًا واضحًا وخرجتُ بالمراسم نفسها الّتي دخلتُ بها.

ولاحظتُ أنّ عيون فرانكو الذّابلةِ كانت تنظرُ إليّ بتركيزٍ، وتأمّلتُ في سرِّي وأنا أتحدّثُ معه، أنّ ذلك الدّاهيةَ السّياسيَّ الّذي حكم إسبانيا بيدٍ من حديدٍ

وهو في أواخرِ سنواتهِ، يستقبلُ الآن شابًّا يافعًا في مقتبلِ العمرِ لم يتجاوزْ عمرهُ الثّلاثة والثّلاثينَ عامًا ويطيلُ شعرهُ وفقًا للموضةِ السّائدةِ في تلك الأيّام.

في الأشهرِ السّتّةِ الأولى الّتي قضيتُها في مدريد قبلَ وفاةِ الجنرال فرانكو، كانت نشاطاتي مُقتصرةً فقط على المناسباتِ الاجتماعيّةِ والثّقافيّةِ البحتةِ والتّعرّفِ على السّلكِ الدّبلوماسيّ العربيِّ وتلمّسِ مطالبِ الجاليةِ الأردنيّةِ الّتي كان أغلبُها من الطّلبةِ. إلّا أنّ وفاةَ فرانكو أدخلت إسبانيا في مرحلةٍ جديدةٍ كلّيًّا، ودخلتُ أنا معها تلك المرحلةَ لمواكبتِها.

حضرَ الملكُ حسين على رأسِ وفدٍ أردنيٍّ كبيرٍ للمشاركةِ في جنازةِ تشييعِ فرانكو، وحضرَتْ وفودٌ أوروبيّةٌ كثيرةٌ، وكان من أبرزِ المُشاركين في التّشييعِ نائبُ الرّئيسِ الأميركيُّ في ذلكِ الحينِ ديفيد روكفلر (David Rockefeller).

حضرتْ هذه الوفودُ من معظمِ الدّولِ الأوروبيّةِ، على الرّغمِ من مقاطعتِها فرانكو لأنّها كانت تعرفُ أنّ حقبته انتهتْ، وأنّ هناك إسبانيا جديدةً ستظهرُ للعيانِ. إلّا أنّ مشاركةَ الملكِ حسين كانت وفاءً لتاريخِ العربِ في إسبانيا، ووفاءً لجدّهِ الملكِ عبد الله. وحضرَ معه رئيسُ الوزراءِ زيد الرّفاعي والشّريف زيد بن شاكر.

كانت مراسمُ التّشييعِ في باحةِ قصرِ الشّرقِ، وأقيمَتْ منصّةٌ ليجلسَ الضّيوفُ عليها، وبعدَ انتهاءِ المراسمِ المهيبةِ وبدءِ مغادرةِ الوفودِ بسيّاراتِها، انهارَ جزءٌ من المنصّةِ، وكادَ الملكُ حسين أن يكونَ في الجزءِ المُنهارِ وكنتُ قريبًا من الانهيارِ، لكنَّ الله سلّمَ.

غادرَ الملكُ حسين إسبانيا، وقمتُ بتمثيلِ الأردنّ في تنصيبِ الملكِ خوان كارلوس، ودخلتْ إسبانيا حقبةً جديدةً، كما دخلتِ الأسرتان الملكيّتان في الدّولتَين في علاقةٍ متينةٍ، ما انعكسَ على عملي وعلى سفارتي.

بمناسبةِ تتويجِ الملكِ كارلوس وبعدَ مغادرتهِ مدريد، أرسلَ إليهِ الملكُ حسين هديّةً كانتْ عبارةً عن سفينةٍ تمثّلُ إحدى سفن كريستوفر كولومبوس (Christopher Columbus) وكانتْ من الذّهبِ ومطعّمةً بحجرٍ أزرقَ شبهَ كريمٍ تمّ شراؤها من محلّات «أسبري» (Asprey)المشهورةِ في لندن وقمتُ بتسليمِها شخصيًّا له في قصرِ الشّرقِ.

بدأتْ علاقاتي بالحكومةِ الإسبانيّةِ تتطوّرُ تدريجيًّا نتيجةَ علاقةِ الملكَيْن واَستقبالِ الملكِ كارلوس لي في أكثر من مناسبةٍ، وفي مرّاتٍ عديدةٍ سألَني: «كيفَ أكونُ ناجحًا كالملكِ حسين؟» وكانتِ الملكةُ صوفيا تدعوني وزوجتي إلى حضورِ بعضِ النّشاطاتِ الفنّيّةِ في دار الأوبرا في مدريد، ما ساعدَني على فتحِ العديدِ من الأبوابِ إلى الدّوائرِ الرّسميّةِ الإسبانيّةِ.

كذلك، اَعتادَ الملكُ حسين التّوقّفَ بطائرتهِ في القاعدةِ العسكريّةِ الأميركيّةِ قربَ براخاس مرارًا بصحبةِ الملكةِ علياء، وكانَ يستقبلُهما العاهلُ الإسبانيُّ وزوجتهُ بالتّرحابِ.

وفي إحدى زياراتهِ، طلبتُ من زيد الرّفاعي وعلى مسمعٍ من الملكِ حسين أن يرسلَ لي مسدّسَ حمايةٍ من عمّان، ففوجئتُ بالملكِ يخلعُ مسدّسهُ الخاصَّ ليهديني إيّاه، لكنّني رفضتُ ذلك بشدّةٍ، وقلتُ له: «لا يمكنُني أن أحرمكَ من مسدّسكَ وحمايتكَ الشّخصيّةِ»، لكنّهُ أصرَّ عليَّ فأخذتهُ شاكرًا ومُعتزًّا بهذه الهديّةِ الّتي لم أطلقْ منها رصاصةً واحدةً حتّى تاريخهِ.

وكنتُ أُدعى من قِبَلِ القائد العامِّ للقاعدةِ العسكريّةِ الأميركيّةِ في براخاس كسفيرٍ أردنيٍّ لحضورِ بعضِ المناسباتِ، كتجربةِ مقاتلةٍ أميركيّةٍ جديدةٍ، أو المشاركةِ في مناسباتٍ اَجتماعيّةٍ معيّنةٍ.

بالرّغم من محاولاتِنا المكثّفةِ لتنشيطِ التّبادلِ السّياحيِّ والتّجاريِّ بين البلدَين، إلّا أنّنا لم نجدْ تجاوبًا من إسبانيا لأسبابٍ أتفهّمُها تمامًا، من أهمِّها أنّها بعزلتِها السّياسيّةِ الطّويلةِ لم تكنْ مُبرمجةً للتّسويقِ الخارجيِّ. وكانت تستهلكُ كلَّ ما تُنتجهُ ولم تكن لديها القدرةُ على التّصديرِ.

كذلك كان جهدُنا يرتكزُ على إقناعِ الإسبانِ في العهدِ الجديدِ بأن يلعبوا دورًا بين أوروبّا والعالمِ العربيِّ، وفي مرحلةٍ لاحقةٍ، أن يشكّلوا صلةَ الوصلِ مع أميركا الجنوبيّةِ.

وحدَها ليبيا تجاوبتْ مع تلك الفكرةِ بفعّاليّةٍ، وأنشأتْ مصرفًا ليبيًّا إسبانيًّا لاتينيًّا، في حينِ كان لمصر مركزٌ ثقافيٌّ نَشيطٌ، قامتْ جيهان السّادات بزيارتهِ، كذلك زارَ الأميرُ فهد بن عبد العزيز في ذلك الوقتِ إسبانيا للمرّةِ الأولى عام ١٩٧٧، وجرى له اَستقبالٌ حافلٌ وتمّتْ معاملتهُ كملكٍ، ومنذُ ذلك الوقتِ بدأَ الاستثمارُ السّعوديُّ المكثّفُ جنوبَ إسبانيا، وتحديدًا في «ماربيا» (Marbella) الّتي أصبحتْ معقلًا سعوديًّا، واَستثمرتْ أيضًا الإماراتُ في المنطقةِ الجنوبيّةِ من خلالِ الشّيخ زايد آل نهيان.

ولاحقًا اَشترى الملكُ حسين أرضًا في جزيرةِ «لانزاروت» (Lanzarote) في جزرِ الكناري الإسبانيّةِ وعاصمتُها «الرّصافة» (Arrecife)، وبنى عليها بيتًا ريفيًّا لم يستخدمْهُ سوى مرّةٍ واحدةٍ، وأهداهُ بعدَها إلى الملكِ خوان كارلوس، وذلك في نهايةِ الثمانينيّاتِ، بعدَ مغادرتي إسبانيا.

بعدَ فترةٍ من وصولي إلى مدريد لتسلّمي مهامي، علمتُ بوجودِ جاليةٍ «فلسطينيّةٍ» أردنيّةٍ تعيشُ في جزرِ الكناري، التّابعةِ لإسبانيا، والواقعةِ في جنوبِها مقابلَ الشّواطئ الموريتانيّةِ. وكانَ اَتّصالُهم شبهَ معدومٍ مع بلدِهم ومع السّفارةِ الأردنيّةِ، وعرفتُ أنّ أصلَ وجودِهم في تلك البلادِ النّائيةِ يعودُ إلى أنّ بعضًا

من عائلاتِهم قرّرَ الهجرةَ إلى البرازيلِ في نهاياتِ القرنِ التّاسعِ عشرِ هروبًا من النّظامِ العسكريِّ التّركيِّ، فركبوا الباخرةَ من حيفا ونزلوا في إحدى الموانىءِ الإيطاليّةِ واَستقلّوا باخرةً أخرى متّجهةً إلى البرازيلِ.

توقّفتِ الباخرةُ في إحدى الجزرِ واَسمُها «غراند كناريا» (Grand Canary)، وبما أنّهم لم يعرفوا سوى اللّغةِ العربيّةِ، ظنّوا أنّهم وصلوا إلى البرازيل فنزلوا من الباخرةِ، وبعدَ حينٍ اَكتشفوا أنّهم لم يصلوا إلى البرازيلِ، فقرّروا البقاءَ حيثُ هم. ومع مرورِ الزّمنِ، شرعوا باَستدعاءِ أقاربِهم وعائلاتِهم، ويصلُ عددُهم اليومَ إلى حوالي أربعة آلافِ نسمةٍ، كلّهم قدِموا من ثلاثِ قرًى في محيط نابلس هي عقربه، وجوريش، وقصرى.

بنى الجنرالُ فرانكو دولةً مسيحيّةً محافِظةً قائمةً على المبادئِ المسيحيّةِ المتشدّدةِ، وحكمَ بيدٍ من حديدٍ وبواسطةِ الجيشِ والحرسِ الوطنيِّ، واَعتمدَ على جنرالاتٍ كانوا من أشدِّ الإخلاصِ والولاءِ لهُ حتّى بعدَ وفاتِه.

لكنّهُ ونظرًا إلى بُعْدِ نظرِه، قرّرَ أن يعيدَ الملكيّةَ إلى إسبانيا بعدَ وفاتِه، ورتّبَ أمورَ الدّولةِ بحيثُ أنّهُ لم يُلغِ الملكيّةَ، بل قامَ بتجميدِها طيلةَ فترةِ حكمِهِ على أن تعودَ بعدَ وفاتِه.

واَختارَ فرانكو خوان كارلوس (Juan Carlos I) ليستلمَ البلادَ بعدَهُ، وهو اَبنُ الملكِ خوان دي بوربون (Don Juan de Bourbon) الّذي كانَ يُفترضُ أن يعتليَ العرشَ الإسبانيَّ بعدَ ألفونس الثّالث عشر (King Alfonso XIII) الّذي كانَ قد عزلهُ فرانكو لدى اَستيلائِهِ على الحكمِ.

اِختار اَبنَ الوريثِ وليسَ الوريث، فقد كان يعتبرُ والدَ خوان كارلوس من مخلّفاتِ الحربِ الأهليّةِ، ولم يكن يريدُ لهذه المخلّفاتِ أن تعودَ بوفاتِهِ واَنتهاءِ عهدِه.

لذا قامَ فرانكو خلالَ فترةِ حكمهِ بتدريبِ الملكِ خوان كارلوس طوالَ سنواتٍ في فروعِ الإدارةِ المدنيّةِ والعسكريّةِ كافّةً كي يصبحَ شبهَ جاهزٍ لوراثتهِ، وعندما توفّيَ فرانكو اَلتزمتْ كلُّ مؤسّساتِ الحكمِ الّتي صنعَها بقرارهِ ولم يشذَّ أيٌّ منها، وأصبحَ كارلوس ملكَ البلادِ بسلاسةٍ واَندفاعٍ.

كان الشّعبُ الإسبانيُّ توّاقًا إلى التّغييرِ، لأنّهُ كانَ يتعرّضُ إلى ضغوطٍ أمنيّةٍ اَجتماعيّةٍ ضيّقةٍ وقويّةٍ، فحرّيّةُ التّعبيرِ وحرّيّةُ الحركةِ والتّجمّعِ كانت محدودةً جدًّا، وبالفعلِ اَستطاعَ خوان كارلوس إحداثَ هذا التّغييرِ الّذي اَقترنَ بأَعتقادٍ شائعٍ في إسبانيا بأنَّ للملكةِ صوفيا اليدَ الطّولى في تصرّفِ الملكِ بتلك الحكمةِ البالغةِ، فقدِ اَتّعظتْ من تجربةِ والدتِها ملكةِ اليونانِ السّابقةِ فريديريكا (Queen Consort of Greece Frederica)، الّتي اَشتهرتْ بشخصيّةٍ قوية ، ما أثّرَ على حكمِ زوجِها، ومن ثمّ اَبنها الملك قسطنطين الثّاني شقيق الملكةِ صوفيا (King Constanatine II, Queen Sofia's brother)، الّذي تولّى الملكَ لفترةٍ قصيرةٍ، ليتركَهُ بعد ذلك ويهاجرَ إلى بريطانيا بعدَ اَستفتاءٍ في اليونانِ أسفرَ عن إلغاءِ الملكيّةِ.

فقد أدارتِ الملكةُ صوفيا مع زوجِها أمرَ التّغييرِ الرّئاسيِّ بذكاءٍ وحكمةٍ، وكان بإمكانِ قوى عسكريّةٍ نافذةٍ الوقوفُ في وجهِ هذا التّغييرِ، لكنْ وبسببِ شدّةِ ولاءِ الجيشِ لفرانكو ولإدارتهِ لم يحدثْ شيءٌ من هذا الأمر.

كلّفَ خوان كارلوس رئيسَ وزراءِ فرانكو أرياس نافارو (Carlos Arias Navarro) الاستمرارَ في الحكومةِ عدّةَ أشهرٍ، بغيةَ التّعرّفِ على القوى السّياسيّةِ، بعدَ ذلك اَستقالتِ الحكومةُ وكُلّفَ شابٌّ وسطيٌّ، هو أدولفو سواريث (Adolfo Suárez)، برئاسةِ الحكومةِ الجديدةِ وطعّمَها بعناصرَ ديمقراطيّةٍ شابّةٍ وبوجوهٍ جديدةٍ وبرموزٍ محافظةٍ ولكنْ بأَعتدالٍ، مثل وزيرِ الدّاخليّةِ فراغا إيريبارنيه (Manuel Fraga Iribarne) الّذي أنشأَ «الحزبَ الشّعبيَّ» اليمينيَّ، وأُجريتِ

الانتخاباتُ فيما بعد، وكانت نزيهةً وفقًا للمعاييرِ الأوروبّيّةِ وفازتِ الأحزابُ بمقاعدِها، وتمَّ تكليفُ فيليب غونزاليس (Felipe Gonzáles)، من الحزبِ الاشتراكيِّ الّذي حصدَ غالبيّةَ المقاعدِ، برئاسةِ الحكومةِ.

وهكذا اَنطلقَ المسارُ الدّيمقراطيُّ في إسبانيا، وأصبحَ الملكُ خوان كارلوس ملكًا دستوريًّا، يتمتُّع بنفوذٍ معنويٍّ وباَحترامٍ شديدٍ من قِبَلِ شعبهِ، واَنطلقتْ إسبانيا إلى الفضاءِ الأوروبّيِّ وأصبحتْ قوّةً سياسيّةً واَقتصاديّةً كبيرةً، ولكنها (وللأسف، تغيّرتْ هذه الصّورةُ في السّنواتِ الأخيرةِ من حكمهِ).

وعُيِّن أدولفو سواريث جنرالًا قويًّا ومؤثِّرًا وذا نفوذٍ كبيرٍ في الجيشِ وكان من حقبةِ فرانكو، هوَ كوتيريش ميادو (Manuel Gutiérrez Mellado) وزيرًا للدّفاع. كان الرّجلُ صمّامَ الأمانِ بين المدنيّين والعسكرِ، ولم يتدخّلْ في شؤونِ الحكمِ.

وتصرّفَ فرانكو بحكمةٍ في ترتيبِ اَنتقالِ السّلطةِ وضمانِ سلاستِها وسلميّتِها. وتعاملَ خوان كارلوس ببراعةٍ مع وضعهِ الجديدِ، ولم يتجاوزْ حدودَهُ وصلاحيّاتهِ السّياسيّةَ والدّستوريّةَ.

وربّما هيَ المرّةُ الاولى في تاريخِ العالمِ الّتي تُلغى فيها الملكيّةُ أو تُجمّدُ ثمّ تعودُ، ولا أظنُّ أنَّ ملكيّةً زالت في التّاريخِ الحديثِ، وعادتْ مرّةً أخرى، وباَعتقادي نجحتْ إرادةُ فرانكو ورغبتهُ؛ ففي اليونانِ أُلغيتِ الملكيّةُ، ثمّ عادتْ، ثمَّ أُلغيتْ نهائيًّا.

وكان فرانكو مُقاطِعًا من دولٍ أوروبيّةٍ غربيّةٍ نظرًا إلى تعاطفهِ مع هتلر، أو على الأقلِّ لالتزامهِ الحيادِ، وكان في نظرِ الغربِ واليسارِ الغربيِّ فاشيًّا هو وحكمهُ، وكانتِ السّفاراتُ الأوروبيّةُ في إسبانيا تعتمدُ إمّا على تمثيلٍ دبلوماسيٍّ منخفضٍ أو لم يكن لها تمثيل أبدًا، وهذا ينطبقُ على منظومةِ الدّولِ الاشتراكيّةِ

والاتّحادِ السّوفياتيِّ، إلّا أنّ ذلك اَختفى بسرعةٍ بعدَ وفاتهِ واَستلامِ كارلوس الحكمَ، وعادتِ المياهُ إلى مجاريها في العلاقاتِ بأنواعها كافّةً.

تذكّرتُ هذا الانتقالَ السّلسَ للسّلطةِ الّذي نقلَ إسبانيا من يدِ الحرسِ القديمِ إلى الحرسِ الجديدِ بدقّةٍ متناهيةٍ، وأدّى إلى هذا النّجاحِ الكبيرِ لإسبانيا، في حين أنّني عايشتُ اَنتقالَ السّلطةِ بين عهدَي الملكِ حسين والملكِ عبد الله الثّاني، وشهدتُ الصّراعاتِ بين ما يُسمَّى بالحرسِ القديمِ وبين ما يُسمَّى بالعهدِ الجديدِ، الّتي برأيي أثّرتْ على السّياساتِ وعلى التّماسكِ الاجتماعيِّ، ولم يكنْ من داعٍ لمثلِ تلك الصّراعاتِ. فالعهدُ الجديدُ بدأَ بدايةً دستوريّةً سلسةً، وحظيَ بدعمٍ جماهيريٍّ كاسحٍ، ومنحَ العهدَ الجديدَ ملامحهُ وفلسفتهُ «أنا لستُ أبي» و«الأردنّ أوّلًا». فلم يكنْ هناكَ أيّ مبرّرٍ لوصفِ حقبةٍ ما أو رجالاتِ الأردنّ في المملكةِ الثّالثةِ «عهد الملك حسين» بالدّيناصورات، أو المافيا أو حتّى بالحرسِ القديمِ.

نشطَ الزّعماءُ العربُ بخاصّةٍ الملك حسين وفئات سياسيّة شعبيّة عربيّة، في السّعي لإقناعِ إسبانيا بعدمِ تغييرِ سياساتِها القريبةِ من القضايا العربيّةِ، وثبتتْ إسبانيا على هذا النّهجِ على الرّغمِ من الضّغوطِ الدّاخليّةِ والخارجيّةِ، لكنَّ توقيعَ مصر لاتّفاقيّةِ كامب ديفيد غيّر هذا الوضعَ، فقد شجّعَ هذا الحدثُ التّاريخيُّ على قيامِ إسبانيا واليونان والبرتغال بطلبِ الانضمامِ إلى السّوقِ الأوروبيّةِ المشتركةِ الّتي تشترطُ التّوازنَ في السّياساتِ تجاهَ منطقةِ الشّرقِ الأوسطِ، أمّا تعريفُ التّوازنِ عندَهم فهو الاعترافُ بإسرائيل، وهذا ما حدثَ، فقامتِ الدّنيا في العالمِ العربيِّ اَحتجاجًا على هذا التّغييرِ، لكنْ سبقَ السّيفُ العذلَ، فقد كانت إسبانيا تسيرُ في طريقِها كي تصبحَ جزءًا من الكيانِ الأوروبيِّ الجديدِ.

كان الأردنّ من أوائلِ الدّولِ الّتي زارَها خوان كارلوس، وأذكرُ أنّ تلك الزّيارةَ تقرّرتْ في العام ١٩٧٧. إلّا أنّ وفاةَ الملكةِ علياء بحادثِ الطّائرةِ دفعَ كارلوس والملكةَ صوفيا، اللّذَين كانا على علاقةٍ حميمةٍ مع الملكِ الحسين والملكةِ علياء وحزِنا جدًّا لوفاتِها، إلى تأجيلِ الزّيارةِ، لكنَّ الملكَ حسين رفضَ وأصرَّ على أن تتمَّ في موعدِها المحدّدِ، أي قبلَ اَنتهاءِ الحدادِ الرّسميِّ على الملكةِ علياء، فحضرا، وأذكُرُ أنّ الملكَ حسين اَصطحبَهما إلى منزلِهِ في العقبةِ وكان دامعَ العَينَين متذكِّرًا الملكةَ علياء، وكانت زيارتهُ هذه لبيتِ العقبةِ هي الأولى بعدَ وفاةِ الملكةِ، وتعاطفَ الجميعُ بِمَنْ فيهم ملك إسبانيا مع الملكِ والمكانِ والذّكرياتِ، فقد كانت زيارةً حزينةً، لكنّها كانت حميمةً ودلّتْ على حجمِ العلاقاتِ بين البلدَين.

وللحقيقةِ، فأنا لا أعرفُ على وجهِ الدّقّةِ طبيعةَ العلاقاتِ الّتي كانت تربطُ الملكَ حسين بالملكِ خوان كارلوس في حياةِ فرانكو، لأنّها لم تكنْ ظاهرةً للعيانِ، كان كارلوس يتدّربُ خلفَ السّتارِ، ولم يكن يظهرُ في المشهدِ السّياسيِّ الإسبانيِّ، ولا أظنُّ أنّ فرانكو كان يريدُ أن يعطيَهُ دورًا سياسيًّا أثناءَ حياتِهِ، لذلك لا أعتقدُ أنَّ خوان كارلوس كان يلتقي بالقياداتِ السّياسيّةِ الأجنبيّةِ، كما إنّ فرانكو لم يكن يرحِّبُ بذلك، وبالتّأكيدِ، كان كارلوس يراعي هذا الأمرَ بخاصّةٍ وأنّ مصيرَ عرشِهِ كانَ بيدِ فرانكو.

واَستمرّتْ هذه العلاقاتُ بوتيرةٍ أعلى، حيثُ كانت الملكةُ صوفيا بذاتِها تشاركُ العائلةَ المالكةَ في كلِّ مناسباتِها من أعيادٍ وأفراحٍ ومناسباتٍ وطنيّةٍ بحضورِها شخصيًّا إلى الأردنّ.

P U R E I S T H E T R U T H

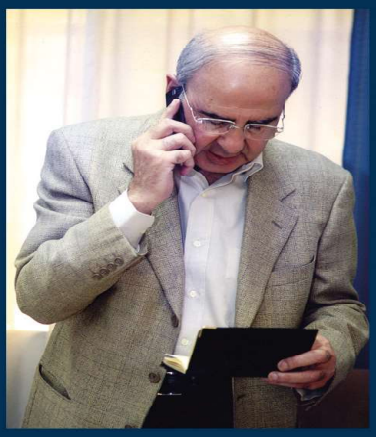

مذكرات طاهر المصري

الحقيقة بيضاء

ومهما كانتِ الظّروفُ الّتي واجهَتْني أو قَيَّدَتْ عملي، حرصتُ على الالتزام بقناعاتي، واَلتزمتُ بمبدأِ النّقدِ الذّاتيِّ لكي أتعلّمَ من أخطائي وأراجعَ مواقفي وأقيِّمَها حتّى أتمكّنَ من متابعةِ مسيرتي في خدمةِ الشّأنِ العامِّ.

وظلَّ ميزانُ حياتي السّياسيّة يعتمدُ على مبدأِ المكاشفةِ والمواجهةِ وليس على المواربةِ والمهادنةِ. وهذا ما منَحَني في مجملِ رحلتي الكثيرَ من الطّمأنينةِ والرّضا عمّا أفعلُهُ وأقولهُ بكلِّ حرّيّةٍ دونَ التّوقّفِ عندَ حساباتٍ تبدو لي في النّهاية خاسرةً تمامًا.

ونظرًا إلى أهمّيّةِ التّطوّراتِ والأحداثِ السّياسيةِ الّتي طبعتْ مسيرتي المهنيّةَ، فكنتُ في خضمِّ مراحلَ واَستحقاقاتٍ مرَّ بها وطني الأردنّ تحديدًا وأمّتي العربيّةِ عمومًا، وبما أنّني عايشتُ حقباتٍ ومراحلَ شهدتْ تغيّراتٍ جذريّةً؛ لذا، عزمتُ على تقديمِ ما خبرتُهُ وما عايشتُهُ في هذا الكتابِ بكلِّ شفافيّةٍ وموضوعيّةٍ.

ويبقى هدفي أن أزوّدَ القارئَ الأردنيَّ والعربيَّ بما علِمتُهُ وتعلَّمتُهُ من دونِ تجميلٍ للوقائعِ، أو تحريفٍ لها بغيةَ تجميلِ صورتي ومسيرتي على حسابِ الحقيقةِ.

فأنا لم أكتبْ هذه المذكّراتِ إلّا بهذه الرّوحِ. قضيتُ السّاعاتِ والأيّامَ في التّدقيقِ والتّمحيصِ، وحرصتُ على تجنّبِ أيِّ اتّهاماتٍ أو الاستنادِ إلى موادّ مزوَّرة.

لقد قلتُ في هذا الكتابِ ما لي وما عليَّ. وأملي أن يجدَ فيه مَنْ يطالعُهُ ما يزيلُ الغموضَ ويسلّطُ الضّوءَ على التّطوّراتِ الّتي أدّتْ إلى ما نحن فيه أردنيّين وعربًا.

وأعتقدُ أنّني قمتُ خلالَ هذه المسيرةِ بكلِّ ما اَستطعتُ إليه سبيلًا.

والله وليُّ التّوفيقِ.

طاهر المصري

9 786144 862629